

الفصل السابع عشر

حفلة الكوكتيل^(١)

إن تلك الأبعاد التي رسمها إليوت لخلق شخصوه في المسرحية السالفة « عودة ائتلاف العائلة » قد لقيت نجاحاً ملحوظاً في « حفلة الكوكتيل » . كما أن المستويات المادية والروحية التي وضعها في المسرحية السابقة والتي أبعدهت أحياناً عن الحدث المسرحي كما اعترف هو بذلك على صفحات مجلة « الأتلانتيك الشهرية »^(٢) قد تركت عيباً فنياً في تلك المسرحية . ولهذا نجده يبذل قصارى جهده في « حفلة الكوكتيل » لسد هذا النقص . وقد اعتمد في ذلك اعتماداً كبيراً على « الحكمة » التي أخذت تتعقد بتعدد المواقف . كما أننا نحس بتطورها كلما تقدمنا في سياق المسرحية . هذا إلى أنه أخذ في الإفصاح عن هذه المواقف في المواضيع المناسبة . ولم يتركنا حيارى إلا بالنسبة لشخصية واحدة أطلق عليها اسم « الزائر صاحب الشخصية المجهولة » الذي تبين لنا في الفصل الثاني أنه السير هنري هيركورت رايلي وهو طبيب نفساني يعتمد على التحليل السيكولوجي في علاج مرضاه .

وفي هذه المسرحية أيضاً نجد محاولات إليوت لمزج القديم بالحديث . فعاد بمخيلته إلى الأساطير اليونانية والمعتقدات الأولى التي سادت الشرق والغرب حول الرحلات المطهرة عند الإغريق وقدماء المصريين . وتركزت هذه الاتجاهات في شخصية السير هنري الذي اعتمد عليه إليوت في إرساء معالم الحكمة المسرحية . فالأحداث تدور وتتقدم وتتعدد ثم تنبسط بالنسبة لهذه الشخصية التي أصبحت بمثابة الإله في الأساطير القديمة . فله قدرة على التنبؤ بالمستقبل

The Cocktail Party

(١)

ظهرت هذه المسرحية للمرة الأولى في احتفال أدنبرا في أغسطس سنة ١٩٤٩ .

«Atlantic Monthly»

(٢)

وعلى تقويم اعوجاج من حوله وهو في كل ذلك إنما يهدف إلى بعثهم ولو رمزياً من جديد ، كما أنه يشبه إلى حد كبير أوزيريس إله الخصب والنماء عند قدماء المصريين ، وقد أشار إليه إليوت من قبل في قصيدته المشهورة « الأرض الخراب » ، فالسير هنرى كطبيب نفساني مخلص حياة من يعرفوه إذ أنه يساعد على جمع شمل الأسر ويرجو لها نمواً وحياة مزدهرة في جو عائلي بهيج .

أما عن هذه الشخصيات التي لها صلة بالسير هنرى فهذا ما يتضح لنا في المشهد الأول من المسرحية إذ نجد أن لافينيا لا تميل إلى زوجها إدوارد تشمبرلين الذى يشتغل محامياً . فهى تحب كاتباً سينمائياً ناشئاً يدعى بيتر كوياب . وهو بدورة يحب فتاة تدعى سيليا كوبلستون وهى شاعرة . وسيليا أيضاً تحب إدوارد لكنه لا يبادلها الحب . وجميع هذه الشخصيات قد جاءت إلى مسكن إدوارد فى لندن لحضور حفل الكوكتيل . لكن زوجته لافينيا قد تركت المنزل بعد الظهيرة دون أن يعلم زوجها عن وجهتها شيئاً . ومن بين المدعوين أيضاً جوليا وهى سيدة ثرثرة غير محبوبة وأليكس (أو إسكندر) وهو رجل حاد الطبع يميل إلى التنقل والترحال .

وبعد انتهاء الحفل ينصرف المدعون ويبقى السير هنرى بعض الوقت مع إدوارد ليؤكد له أن لافينيا ستعود إليه عما قريب . وقبل انصراف بيتر يجبر إدوارد بأنه على علاقة بسيليا وأنه أحبها لميلها إلى الفنون عامة . فكثيراً ما كان يتقابل معها فى الحفلات الموسيقية . وقد بدعوها أحياناً لتناول الشاي أو العشاء معه . لكن هذه العلاقة لم تستمر طويلاً ، فلقد أحست فى لقاتها الأخير معه أنه لم يكن فى أحلامها ، فبدأت تختلق الأعداء وتظاهر بالانشغال .

أما بيتر فقد عبر عن هذه الخبرة بأنها تجربته الأولى والأخيرة فى معرفة « حقيقة » المرأة ، ولهذا ينصح إدوارد بترك لندن والحو الذى تحيا فيه سيليا ، ويمهد له فكرة العودة إلى كاليفورنيا لإنجاز أعماله السينمائية الخاصة بكتابة السيناريو والاتصال بالمخرجين هناك . كما أن إدوارد بدوره ، حينما

عادت سيليا إليه ثانية . قد أوضح لها بأنه يود أن ينهى علاقته معها وبخاصة وأن زوجته لافينيا ستعود إليه ، وهذه العلاقة قد تكون سبباً في تحطيم حياته الزوجية فينصحها بالابتعاد عنه .

وبعد تخلصه من هذا الحب . يمر إدوارد في مرحلة مواجهة الذات التي كثيراً ما حدثنا عنها إليوت . فلقد بدأت ذاتية إدوارد في التكشف ، وأخذت في التبلور . وانبرت للصراع مع الإرادة . وعرف أن أى هروب من واقع هذا الصراع هو في الحقيقة تهرب من مشكلة وجود الإنسان ، هو الاستسلام للأوهام والخيالات في ضعف وذلة ومسكنة . وهذه الذاتية في نظر إليوت هي الحارس الصامت على كيان الشخصية في تقدمها ورفعها .

وبينما إدوارد على هذا الحال في مواجهته لذاتية يحاسبها وتحاسبه حساباً عسيراً دون أن يتمكن من السيطرة عليها ، إذ بلافينيا تعود إليه في عصر اليوم التالي لتخبره بأنها قضت معه خمس سنوات دون أن تحسن للسعادة الزوجية طعماً ، إذ تبين لها بعد زواجهما بقليل أنه إنسان عابس لا يؤمن بهجة الحياة . وما زاد الطين باة أنها وجدته غير متزن سيكولوجياً ، ولهذا نجده في الفصل الثاني من المسرحية يسرع بالذهاب إلى السير هنرى الطبيب النفساني ويشرح له ما يعانيه من ضмор في الشخصية وأنه على وشك فقدانها تماماً . ويعلم في عيادة الطبيب أنه هو الذى رتب أمر خروج لافينيا ثم عودتها ثانية في اليوم التالي وذلك بالاتفاق مع جوليا وأليكس ، وأنه كان يهدف من وراء ذلك إلى تقوية رباط الزوجية بينهما ، إذ كان على شفا الانفصال وكادت أوصاله أن تتمزق . ونعلم نحن أيضاً من الحوار بينه وبين الطبيب النفساني أنه بعد زواجه من لافينيا قد ذابت شخصيته أمام قوة إرادتها إلى درجة مريعة عبر عنها هو بقوله « أنها قد محت كيانى تماماً » ، فلم تعد له أية قدرة على مواجهة الحياة بصعابها ومشاكلها . وهذا الموقف يذكرنا بيجروت إيمى الأم العجوز في مسرحية « عودة ائتلاف العائلة » في علاقتها مع ابنها الأكبر هارى مع وجود اختلاف واضح بين

شخصيتي إدوارد وهاري . ولعلنا نثنين من وراء ذلك اهتمام إليوت بعلاج مشكلة حب المرأة للتملك والرغبة في السيطرة . فهذا هو إدوارد يقول لطبيبه :

« حينما فكرت في رحيلها ، أحسست بالتحلل يدب بين جوانحي
وصار وجودي في حكم العدم . فهذا هو ما جنته عليّ !
إنني لا أطيق الحياة معها — فهذا ما لا قدرة لي على احتماله ؛
كما أنني لا أقدر على الحياة بدونها ، فلقد سلبتني القدرة
على العيش بمفردي .

هذا هو ما جنته عليّ في مدي خمس سنوات !
فلقد حولت عالمنا إلى مكان لا أستطيع أن أحيأ فيه
الإطباقاً لما تمليه من شروط » (١) .

وهكذا يضيق إدوارد ذرعاً بهذه الحياة ، فلا هو هاني بمفرده ولا هو علي
وفاق أو واثام مع زوجته ، فهو يعاني من انقسام في الشخصية التي أصبحت
كحبة مهلهلة من الاتجاهات والمنازعات المتضاربة . وهنا يلعب الطبيب النفسي
السير هنري دوراً غير عادي إذ يفاجئ إدوارد بدخول لافينيا إلى العيادة السيكولوجية
لمواجهته بناء على ترتيب سابق معها ، ثم إنه لم يكتف بذلك بل أخذ يذيع سر
علاقة إدوارد بالفتاة سيليا مما أذهل لافينيا . وبعد أن ألقى هذه القنبلة التي وقعت
على مسمع لافينيا كالصاعقة ، أدار وجهه إليها وواجهها بحقيقة حبها لبيتر
كولب الذي هجرها لوقوعه في غرام سيليا . وهكذا كشف الطبيب النفسي

“When I thought she had left me, I began to dissolve,
To cease to exist. That was what she had done to me !
I cannot live with her — that is now intolerable;
I cannot live without her, for she has made me incapable
Of having any existence of my own.
That is what she has done to me in five years together !
She has made the world a place I cannot live in
Except on her terms.”

Ibid., *The Cocktail Party*. London 1950 — Reprinted 1953, p. 99.

أمر الاثنين بعد أن واجه كلاهما بحقيقة الأمر . ويستنتج من هذا الموقف أن كلاهما غير قادر على الحب وهو لهذا ينصحهما بالعودة إلى عش الزوجية بعد فشلها في الخروج على تقاليد ومقتضياته .

وبعد انصراف إدوارد ولاينا تجيء سليا إلى العيادة النفسية بناء على نصيحة جوليا ، ويعلم السير هنرى من سليا أنها تعاني من شعور قاتل بالوحدة المريرة ، فهي تعيش بمفردها في شقة صغيرة بلندن وكانت تشاركها فيها إحدى قريباتها لكنها رحلت إلى أوروبا . كما أن بقية أفراد عائلتها تعيش في الريف وهي لا تميل إلى هذا اللون من الحياة . ومع أنها تضيع بحياة الريف إلا أنها أيضاً متبرمة بحياة المدينة لحب أهلها إلى التظاهر والخداع . فحياتهم كلها سراب ، وشعورهم نحو بعضهم البعض قائم على الزيف والافتعال . إذ لا وجود للمودة الحقيقية النابعة من الحب الصادق والإحساس الأمين . هذا إلى أن سليا تعاني أيضاً من الشعور بالإثم وترد ذلك إلى تربيته المحافظة الأولى . فهي تخشى هذا الشعور وتجزع منه وتتوهم أنه يطاردها ويلحقها في أى مكان حلت به ، كما أنها لا تستطيع الفرار أو التخلص منه ، ذلك أنه مختلط بمشاعر وأحاسيس أخرى كثيرة كالشعور بالفراغ في محيط حياتها . وإحساسها بالفشل في كل خطوة تخطوها إلى الأمام . وهي تود من أعماق قلبها أن تكفر عن كل ما بدا منها بعد أن أصبحت حياتها سلسلة من الحلقات المفرغة ، وأصبحت تؤمن بالخيال أكثر من إيمانها بالحقيقة . فلقد استهوتها الثعالب الإنسانية الماكرة بعينها المنتمرة ففررت وضللت بها ، وهي تذكر علاقتها الماضية على أنها نزوات صبيانية ، وأنها لن تعود إلى مثل هذه الخبرات ثانية . فينصحها السير هنرى بالإقلاع عن كل هذه الذكريات وبالاندماج في الروتين العادى للحياة دون أن تنتظر الكثير من الآخرين حتى لا تصاب بحمية أمل ، على أن تكون على استعداد لروح التسامح ، فتعطى بأكثر مما تأخذ ، وتبذل في سبيل الآخرين بأكثر مما تنتظر منهم . وينصحها أيضاً بعدم الانزواء بعيداً عن المجتمع بل عليها أن تلاقى

الصباح بنفس مشرقة وفي المساء تتقابل مع صديقاتها للحديث الطلى حول المدفأة .

لكن هذه الحلول لم تصادف هوى في نفسها ، فما زالت تحسن إحساساً عميقاً بأن المجتمع بكيانه الراهن ملئ بأساليب الختد والكراهية ، فهي تؤثر الفرار منه وتأمل أن تجد الراحة والطمأنينة بعد اليأس والقنوط . ولهذا فإن الطبيب النفساني يشير عليها بأن تسلك طريق الإيمان والمثل العليا ، فهو الطريق الوحيد الذى سينقلها خارج العالم بشره وخداعه ، وأهوائه وذكرياته ، ومطامعه ومغرياته . ترى هل سيكون للمصحة التى يرسل إليها مرضاه أى أثر فعال على مثل هذه الحالة ؟ إنها تردد فى قبول الفكرة أولاً لكنها قبلت أمام تأكيده لها بأنها ستخرج منها بأحسن حال مما هى عليه الآن .

وفي الفصل الثالث والأخير نعود ثانية إلى عائلة تشمبرلين لنجد لافينيا تعد العدة لحفل كوكتيل آخر بعد مضي عامين لمجموعة أخرى من الأصدقاء . ومع أنها لم تدع المجموعة الأولى من معارفها إلا أنهم جاءوا إلى الحفل الواحد بعد الآخر ، فها هى جوليا وأليكس الذى عاد فى الصباح من رحلة فى جزيرة نائية تدعى كنيكانجا والسير هنرى ثم بيتر وقد عاد من كليفورنيا . وعلى ذكر اسم هذه الجزيرة تلهف الجميع لسماع تفاصيل الرحلة التى قام بها أليكس حيث القبائل تعيش على الفطرة وحيث القرود تخرب المساكن وكل ما يصادفها دون أن يمسه أهل الجزيرة بأى أذى إذ أنهم يقصدونها . واقد سافرت سيليا إلى هذه الجزيرة بعد أن اشتغلت ممرضة إذ أن الأمراض والأوبئة منوطنة فى هذه الجزيرة . ولكنها لم تعمر طويلاً فلقد قتلها أهل القرية التى كانت تعيش فيها بعد أن سهرت على رعايتهم وضمت كثيراً فى سبيل خدمتهم الصحية .

ولعلنا نتبين أن الطريق الذى سلكته سيليا طريق وعر ملئ بالآلام والمهالك ، وهو يشبه إلى حد كبير الطريق الذى سلكه بيكيت فى مسرحية « جريمة قتل

في الكاتدرائية» أو الطريق الذي رسمه لنفسه هاري في مسرحية «عودة ائتلاف العائلة» . وهو نفس الطريق أيضاً الذي تقدمت فيه جان دارك لتقود الجيوش الفرنسية إلى النصر في معاركها ضد الإنجليز في القرن الخامس عشر كما حدثنا عنها برنارد شو . وإذا كان الإنجليز قد أحرقوا جان دارك بعد أن قبضوا عليها ، فإن أهل جزيرة كنانجا قد صلبوا سيليا التي قبلت التضحية بنفس راضية . فقد تمكنت سيليا من السمو إلى مرحلة الإرادة الحرة بعد أن واجهت ذاتيتها وبعد أن أخضعها وأذلها في سبيل ما تصبو إليه نفسها . إذ بعد أن تخلصت نهائياً من علاقتها بإدوارد ، ركزت كل همها في خدمة الإنسانية حتى إذا ما أصبحت ذاتيتها طوع بنائها رحلت إلى جزيرة كنانجا لتقدم لنا عملياً ما رسمته لنفسها نظرياً في غير تردد وبدون مبالاة .

أما عن بيتر فهو ما زال في أول الطريق يترنح بين كاليفورنيا ولندن . وبعد أن فقد عطف سيليا وحبها ، لم يجد بداً من التمسك بصناعة السينما ، ففي إشباع ميوله الفنية في هذا الميدان تعويضاً له عما فقد ، وإعلاء لرغباته داخل محراب الفن . ومع أنه في بداية الطريق ويرى معاملة واضحة أمامه إلا أنه غير مستعد للتضحية بذاتيته وإنكارها حتى يرسم خطوات سيليا ، فالشوط ما زال طويلاً أمامه ، وتحقيق الأهداف العليا تتطلب منا المأ وجهداً .

أما إدوارد ولافينيا فهما بعيدان عن معالم هذا الطريق ذلك أنهما قد خضعا لذاتيتهما بعد أن استمعا لمشورة السير هنري الطبيب النفساني ، كما أن علاقتهما لا تسمح بالتقدم أو السمو فروح التحفظ تظل هذه العلاقة التي تقوم أيضاً على تحفز كل منهما بالآخر . هذا إلى أن الصراع واضح في شخصية كل منهما وبخاصة في محاولتهما الجري وراء الحب خارج عش الزوجية ثم ارتدادهما في يأس بعد أن فشل إدوارد في حبه لسيليا ولافينيا في حبه لبيتر كويلب . إن عنصر الأنانية متأصل في نفسيتهما ولا يمكننا أن نتنظر ظهور أية بادرة للنمو والازدهار لعلاقة زوجية قائمة على حب الذات .

إن هذه العلاقة وغيرها من بقية العلاقات الأخرى في المسرحية تبين لنا بوضوح أن مثل هذه الصلات غير مكتملة ، إذ أنها تتركز على ضعف في شخصيات القائمين بها ، فمفهوم النفسى لم يكتمل بعد ، وجشعهم في تفضيلهم لذاتياتهم قبل أى شىء آخر ، هو السبب الحقيقى الدفين لالتواء هذه العلاقات وانحرافها عن مجراها الطبيعى ، ذلك أنها - كما قال الطبيب النفسانى السير هنرى - لا تقوم على روح التسامح والبذل والتضحية في سبيل الآخرين . فالخيوط التى تربط بعضهم البعض الآخر خيوط رثة بالية آيلة للتمزق ، فقد تقطعت أوصالها في مناسبات شتى . هذا بالإضافة إلى شعورهم بالإفلام العاطفى مما جعلهم أشبه بدمى لا حياة فيها ، ففى اللحظة التى انسحبت فيها سيليا من حياة إدوارد تحول على حد تعبيرها إلى قطعة من المومياء ، لها مظهر الآدمية ، لكنها جثة هامدة خالية من الحركة والحياة .